١٦١ ﴿أيوب البشرّاني﴾ كان في القرن السابع عشر. وجدنا لهُ في مكتبة الموارنة في حلب (ع ٥٤٧) قاموساً سريانيًّا وعربيًّا ولاتينيًّا ، مؤلفهُ أيوب الشمّاس ابن جبرائيل البشرّاني الاصل من بيت أيوب القاطن حلب تلميذ مدرسة رافقًا (الهُصلة)

(انتهى باب الالف)

حوادث دير الزور في زمن الحرب

لشاهد عياني الاديب جوزيف افندي توتل

نشر المشرق (١٠ [١٩٠٧] : ٣٨ — ٤٥) لُمعةً مستحسنة عن تاريخ دير الزور ووصف احوال هذه المدينة الحديثة وترقيها في عهد متصرّفها احمد رشيد باشا. ثم زادت امورها تحسُّناً الى زمن اعلان الحرب حيث كان يتولّى امرها المتصرّف جلال بك المعروف ببسْتهِ وانصافهِ. وكان النصارى في دير الزور بين ٣٠٠ و٤٠٠ نفس معظمهم من التجار الكاثوليك الارمن والسريان والكلدان والروم ولكلّ طائفة كاهن يرعاهم وللطائفتين الاولين كنيستان

بقيت دير الزور بفضل متصرّفها جلال بك في هدوء وسكينة بعد دخول تركية في الحرب ولمّا اتّفق ضابطو دفّة الحكم التركي في الاستانة على تضحية الشعب الارمني واستئصال شأفتهِ في تركية لم يكترث لهذا القضاء الجائر متصرّف دير الزور وثبت على خطّتهِ العادلة مع نصارى ولايتهِ

ثمّ لم تلبث الحكومة ان وجّهت الوفاً من المهاجرين من انحاء تركية الى دير الزور فكان المتصرّف النبيل ينزلهم في ضواحي المدينة وخاناتها ويأمر باسعافهم على قدر استطاعتهِ مع انّ عددهم بلغ في خريف السنة ١٩١٥ نيّفاً و ١٦٠٫٠٠٠ ثمّ زاد الى ٣٠٠٫٠٠٠ من كلّ الولايات العثمانيّة. وكثيرًا ما اثنى المهاجرون على لطفهِ وحسن تصرّفهِ

على انّ الذئاب الكاسرة الجالسة على منصّة الدولة في الاستانة من اهل الاتحاد

والترقي كبطلمت وانور ولمشالها لم يرضوا بخنان جلال بك نحو اولئك المنكوبين الذين كانوا يذرقون الموت ألواناً في طريقهم قبل بلوغهم الى دير الزور ثم يُنقلون منها الى حيث ينتظرهم الجزّارون من اتراك واكراد وجركس واجلاف العرب فيذبحونهم ذبح الحملان. وانما ارادوا ان تختضب ايضاً دير الزور بدمائهم ومن ثم نزلوا جلال [illegible] الدينة مأسوفاً عليه مذكوراً بالشكر من جميع اهلها

وما عتم ان وصل الدير ليخلفهُ في منصبه وحشٌ ضارٍ متقمص بجسد بشري يُدعى زكي بك حلّ الدير في اوائل حزيران من السنة ١٩١٦. وكنتُ قبل وصوله ببضعة اشهر قدمتُ الى دير الزور بدعوة البعثة الالمانيّة التي كانت بحاجة هناك لمن يسعى بماديات ذويها وتجهيز لوازمهم وكان بلغهم اني عارف بلغتهم الالمانية فأحسن خدمتهم كترجمان بينهم وبين الاتراك. وقد رضيتُ بهذه المهنة مع نزعتي الشديدة الى فرنسة وامورها فراراً من ظلم الحلفاء ثم املاً بخدمة النصارى في تلك الجهات. فما مرَّ عليَّ زمن قليل حتى عاينتُ من الفظائع ما لا يستطيع ان يصفهُ لسان

جاء زكي بك حاملاً اوامر زعماء الاستانة بذبح الارمن. فكانت تلك الاوامر مطابقة لاميالهِ الدمويّة فاستعدَّ لهذا العمل الشريف بحيث لا يفوتهُ منهُ ادنى فضل

كان اولئك البائسون يساقون كالغنم من ارمينية والولايات الشمالية عراةً حفاةً مشاة الى حلب ومنها الى صحراء دير الزور. دون طعام يقتلهم العطش ومع انَّ طريقهم كان في جوار ضفة الفرات الشرقية كان الجنود قوّادهم لا يسمحون لهم بان ينقعوا غليلهم بماء النهر فيموتون عطشاً

وكانت قوافلهم تجري الواحدة تلو الاخرى واذا طُرد اهل بلد من وطنهم يُفصَل الرجال عن النساء فيُذبحون وتترك النساء مع اولادهن يواصلن الطريق وحدهنَّ فاذا حللن في مكان كان يتهافت عليهن الاكراد فيسلبون منهنَّ من الحلي والدراهم ما امكنهم. واذا دخلن مقاطعة للاعراب ولم يبقَ معهنَّ ما يبتّعن لهنَّ طعاماً يأتي العرب افواجاً ويختارون البنات والنساء فيسوقونهنَّ الى منازلهم ويقتلون اللواتي يمتنعنَ عن موافقتهم او يحاولن الدفاع عنهنَّ. فكانت طريق القوافل تُعرف من وفرة جثث الموتى الملقاة على قارعتها. فكم هلك من تلك السيارات جوعاً وعطشاً وضرباً وخنقاً.

بل كم من اولئك المنكودات الحظ اصابهنّ نوع من الجنون فانتحرن او القين نفوسهنّ في النهر او الآبار لينجون من ايدي الظالمين. وكان بعض هذه القوافل قد قضت سبعة اشهر سيراً على الطرق. فلم يسلم منها الا بعض الأفراد. خرج من مدينة ارزنكان في ولاية ارضروم ثلثة آلاف عائلة فما وصل منهم الى دير الزور الا ثلثة عشر شخصاً وتلف الباقون او تاهوا في البراري

فلمّا صار الامر في ايدي زكي بك كان عدد المهاجرين من الارمن في دير الزور وضواحيها ١٢٦،٠٠٠ وكان احضر معهُ اربعمائة من الجركس اقامهم على ضفّة نهر خابور احد سواعد الفرات ثمّ قضى ثلثة اشهر ينقل هو نفسه فئات من المهاجرين ويسلّمهم للجركس فيذبحونهم امامهُ كيفما شاؤوا رمياً بالرصاص وضرباً بالسيف وخنقاً ثمّ يلقونهم في النهر فقُتل على هذا المنوال ١٢٠،٠٠٠. وبقي من النساء بضعة آلاف اختفى منهن نحو الف في بيوت دير الزور عند اهلها المسلمين اذ حُظر على النصارى تحت عقاب الموت ان يُؤوا المهاجرات في بيوتهم. على انّ حالة هؤلاء المنكودات الحظّ كانت اشنع من الموت اذ كنّ كالبهائم لا ينلنّ كسرة الخبز الا بتسليم نفوسهنّ للفحشاء ثم يبأمونهنّ ويطردونهنّ

وهرب منهنّ نحو اربعة آلاف تفرّقن ايدي سبا بين قبائل العربان ونجا البعض منهنّ بعد نهاية الحرب فأخبرن عمّا اصابهنّ من البلايا ما تتفتّت له الاكباد الجلمودية

استشهاد الاب بطرس اغاجانيان

كان بين المهاجرين من الارمن عدّة قسوس لاسيما من الفريغوريين ساقوهم من بلادهم مع رعاياهم. وكان من جملتهم كاهن يسوعيّ من مرسليهم في بلاد الارمن يُدعى الاب بطرس اغاجانيان. وهو ارمنيّ الاصل ولد في قيصريّة من ابوين غير كاثوليكيين تربّى في مدارس الكاثوليك ثمّ ذهب الى بيروت حيث درس مدّة في كلية القديس يوسف بصفة اكليريكي (١٨٩٣—١٨٩٧) وتعاطى مدّة فنّ الصيدلية الى ان دعاهُ الآباء اليسوعيون في آطنه الى التعليم في مدارسهم فعلّم نحو خمس سنين لكنّهُ شعر في اثناء تعليمهِ بدعوة الله يتندبهُ الى التوهّب في الرهبانيّة اليسوعيّة فلبّى صوتهُ تعالى في ١٣ شباط ١٩٠٤ ولهُ من العمر ٢٩ سنة. وكان بعد دروسهِ اللاهوتيّة ارتسم كاهناً وعاد الى وطنهِ لأعمال الرسالة في اواسط السنة ١٩١١. في

مرسيقان . فما كاد يمرُّ عليهِ بضعة اشهر حتّى قامت الحرب على ساقها وأُلقي عليهِ القبض فنُظم في سلك المهاجرين وأُرسل الى قونية ومنها الى حلب حيث اودعوهُ السجن

فسعى الآباء اليسوعيُّون في الشهباء بان ينالوا اطلاق سراحهِ فجاء الامر بتأجيل سفرهِ الى دير الزور فبقي في سجنهِ الى ان حضر المأمورون واخرجوا القسوس الارمن ليرحلوا بهم الى منفاهم دون الاب بطرس الذي ابقوهُ في سجنهِ وتوطّد بذلك الامل في نجاتهِ . على أنَّ احد قسوس الارمن غير الكاثوليك احتجَّ لدى الاتراك وأبى ان يسافر ما لم يَسِرْ معهم الاب بطرس وهو مثلهم ارمنيّ الاصل . فأعاد احد رجال الشحنة وهو يجهل الامر بابقاء الاب في حلب فاخرجهُ وساقهُ مع بقيّة القسوس دون أن يبالي بما بلّغهُ الاب عن امر تأجيل سفرهِ

أما وصل الاب بطرس الى دير الزور رُوعي فيها جانبهُ وأُطلق سراحهُ فابتدأ يتولّى شؤون وظيفتهِ الرسوليّة في خدمة النفوس ويقدّم الذبيحة كلّ صباح في كنيسة السريان الكاثوليك ثمّ يصرف اوقات الفراغ قسماً في الصلاة والمطالعة وقسماً في تفقُّد الفقراء المهاجرين المتكوبين دون ان يفرق بين الكاثوليك وسواهم فيعزي الجميع على اختلاف مذاهبهم ويلهمهم الصبر الجميل ويذكّرهم بآلام سيّدهم وعذابات شهدائهم . فاكتسب ثقة رفقائهِ لاسيما الارمن غير الكاثوليك الذين لم يعهدوا في كهنتهم مثل هذه الغيرة على خلاصهم فشاع اسمهُ بينهم فكانوا يلتجئون اليهِ في ضيقاتهم لاسيما النساء والبنات ليصون شرفهنّ فكان الاب يسعى جهدهُ في ذلك فاستطاع ان يجد لبعضهنّ أماكن يأمنّ فيها على عرضهنّ وكان يحضّ الجميع على حفظ براءتهنّ مهما تكلّفن من المشقّات بل يفضّلن الموت على فقد طهارتهنّ

ومما يوجب الاسف انهُ فيما كان الاب اغاجانيان يستنفد قواه في صيانة اولئك النساء والعذارى تصدّى لهُ شيخ شرير من كهنة غير الارمن الكاثوليك من فورنوز من لواء مرعش سوّل لهُ الشيطان ان يتّخذ لهُ مهنةً بين المهاجرات بان يبيع اعراضهنّ لذوي العهارة والفحش . فتصدّى لهُ الاب بطرس بما امكنهُ من الوسائل ليخلّص من حبائلهِ الفتيات ولم يأخذهُ في عملهِ لومة لائم وقد بارك الله غيرتهُ مرارًا فمن جملتهنّ خادمة عرفتُها اسمها رايوهي صرافيان هي اليوم في بغداد كانت تبارك اسم الاب اغاجنيان وتنسب اليهِ حفظ شرفها

وبالاجمال انَّ الاب المذكور احسن القيام بسائر واجباتهِ متفانياً باتمامها على مثال اخوتهِ الآباء اليسوعيين . وقد شهدتُ ذلك واختبرت اعمالهم من قريب فرأيت من واجباتي ان اعلن بها بعد موتهِ تخليدًا لذكرهِ لانهُ قد مات قديساً كما سترى

ما كان زكي بك ليجهل ما يأتيهِ الاب اغاجانيان من اعمال الغيرة والرحمة نحو الارمن فسامر بأن يلقى في السجن مع كثير منهم وذلك في ٢٨ تموز ١٩١٦ . فكان لوفاتهِ كملاك من السماء يلطف اوجاعهم بكلامهِ وامثالهِ . وفي تلك الاثناء وردني من قبل الآباء اليسوعيين في حلب مبلغ خمس ليرات باسمهِ فدفعتها لهُ . وبقي في حبسهِ الى القسم الثاني من شهر آب حيث ساقوهُ الى مكان يُدعى الصُوَر وهناك استشهد على ما تبيَّن لي في تاريخ ٦ ايلول ١٩١٦ . وقد فتشتُ لأعرف شيئاً عن صفة موتهِ لأستطيع ان أُخبر عنها الآباء اليسوعيين اخوتهُ فتيسَّر لي الامر بمواجهة رجل مسلم من اهل دير الزور يُدعى صالحاً الكويدر شهد قتلهُ قال :

رأيتُ قبل غروب الشمس بنحو نصف ساعة فئة من الارمن يبلغ عددهم زهاء المئة وحولهم الجركس وكان بينهم الاب بطرس مرندياً بقميص وسروال فقط وهو واقف ويدهِ كتابٌ يقرأهُ . وكان الجركس يربطون الارمن بالاكتاف ويربطونهم كسلسلة واحدة . فلمَّا اقتربوا من الاب اغاجانيان دعاني فدنوتُ منهُ فسلَّمني الكتاب قائلًا : « خذ هذا الكتاب وأعطهِ القسيس الكاثوليكي الباقي في دير الزور » وكانت دلائل الصبر والجلَد ظاهرة على محيَّاهُ وهو يُتمتم صلاةً فاوثقوهُ مع رفاقهِ . فلمَّا تمَّت السلسلة ساقوهم وراء تل يبعد نحو عشر دقائق من مكاننا وانا انظر اليهم حتَّى توارَوا عنَّا . وبعد دقائق قليلة سمعتُ صوت طلقات عديدة متوالية من الرصاص . وما مضى على اطلاقها نصف ساعة حتى رجع قسم من الجركس ثم وردت جماعة من العربان اعتادوا ذبح الاجسام وسلبها ما عسى طبها من الاشياء . فلا شكَّ ان الاب بطرس رُمي بالرصاص وذُبح في جملة رفاقهِ »

ومن غريب ما شاهدناهُ نحن في مساء ذلك النهار اي ٦ ايلول بعد مغيب الشمس بخمس دقائق سهمٌ ناريٌ ظهر في الافق الغربيّ من مدينة الدير كان اوَّلًا منتصباً طولهُ نحو متر ونصف الى مترين على هذه الصورة | وكانت السماء حمراء صافية من كلّ غيم او ضباب كما تُرى عموماً في اواخر الصيف في هذه الانحاء والسهم يجتذب اليهِ النظر كشيء خارق العادة . وبقي ذلك بضع دقائق ثمَّ اخذ رأسهُ يميل شيئاً فشيئاً الى الشمال على هذه الصورة ↙ ثمَّ انحدر بطيئاً حتَّى صار محاذياً للافق ← بل غاص رأسهُ تحت الافق متقوِّساً حتى انقلب تماماً ثمَّ غاب . فدام ما بين ظهورهِ الى

غيابه عشر دقائق . وقد شاهده اهل دير الزور واهل البلدة التي تبعد عنها ٤٨ كيلومترًا واهل السبخة الواقعة على بُعد مئة كيلومتر منها

ومما له علاقة بهذا الحادث وبالمذبحة المذكورة انَّ رجلًا ارمنيًا كان عمره ٢٨ سنة قصد بيتي في دير الزور واختفى عندي مدَّة ١٥ يوماً ثمَّ ساعدته في هربه الى حلب . فهذا كان قد رُبط في تلك السلسلة البشريَّة التي أُطلق عليها الرصاص ليلة قَتْل الاب بطرس ورفقائه لكنَّهُ قبل ان تصيبهُ الرصاصة تمكَّن من قطع حبله وانساب بين جُثث الصرعى واختفى في حفرة قريبة خرج منها عند هجوم الليل وتاهَ شهرين في البرّيَّة ثمَّ رجع متنكّرًا واوى الى بيتي فسألتهُ عن تلك المذبحة وتاريخها فقال لي: «كان ذلك في الليلة التي ظهرت علامة نارية في السماء فشاهدتُها وانا في حفرتي» فثبت لي انهُ اشار الى مذبحة ٦ ايلول

صلة اخباري الى نهاية الحرب

امَّا انا فكان مركزي في تلك الحوادث حرجاً للغاية . فكانت المساعدات الماليَّة تأتي من الجمعيَّات الخيريَّة الاميركيَّة والاوربيَّة الى حلب الى قنصل اميركا فهو يبلّغني اياها فأسلمها الى المهاجرين . فارسل المتصرف يوماً شُرَطاً قبضوا عليَّ فبقيتُ موقوفاً نصف نهار والتحقيقات جارية في حقّي وكاد زكي بك يضمّني الى عداد المنفيين الهالكين وهو مُطلَق الحكم مفوَّض بقتل كلّ من يشاء . الَّا انَّ الله انقذني من يده لحاجة الاتراك اليَّ وكنتُ حينئذٍ وكيلًا للجنة المتعهدة لتقديم السمن الى الجيش العثماني الرابع وكان جمال باشا السفّاح يشدّد الاوامر في ترويج اشغال السمن فكان ذلك سبباً لنجاتي

وكان في دير الزور ما خلا المهاجرين من الارمن عدد وافر من الاسرى الانكليز والفرنسويين والروس فوكلَتْ اليَّ قنصليَّة اميركا توزيع معاشاتهم فتعفي المتصرّف عن تتميم وكالتي . فلمَّا علم بذلك القنصل عيَّنني بصفة رسميَّة لانجاز تلك المهمَّة فأبى زكي بك استعرافي لكوني مشبوهاً على قوله بعلاقاتي مع الارمن . فاستاء اذ ذاك القنصل وطلب من جمال باشا تحويل الاسرى الى غير جهة فحوَّلوهم . . .

وكان عدَّة اشخاص من اولاد ونساء يأتون فيستخفون في بيتي فينجون من الموت (اطلب في المشرق ١٩ [١٩٢١] : ٣٨٤ قصَّة الطريد الارمني) . كان من جملتهم

ثلث نساء عفيفات جميلات مع فتاة وصبيّ وهنّ من ارباب بيوت الارمن كان اهل الفساد يحاولون سبيهنّ . فلمّا دخلن بيتنا أمّنّ على عرضهنّ بيد انّ اصحاب السوء ارادوا ان يوقعوا بي فيتهموني بالفحشاء لدى الحكومة . فحرّكوا الادارة المسئولة عن المهاجرين لتأمر بكبس بيتي حتى اذا وجدوا نساء صبايا يأخذونهنّ

فبلغني الخبر قبل وصول البوليس الى بيتي فألهمني الضمير حيلةً استبعدتُها في نظر الواجب والذمّة فذهبت من ساعتي الى القس الكلداني وهو راهب بسيط وتقي فقصصت عليه الخبر وطلبت منه شهادة زواج باحدى النساء الثلث مؤرخة من شهرين سابقاً . ففعل رحمةً باولئك المهاجرات . فعدتُ مسرعاً الى بيتي انتظر الشرطة فبعد ساعتين أتى الترميس مع بعض انفار وطلبوا ان يروا النساء اللواتي في بيتي فامتنعتُ من كشفهنّ مدّعياً انّ الواحدة قرينتي والثانية اختها والثالثة صانعة في بيتي واظهرتُ لهم شهادة زواجي بختم الرئيس الديني فاقتنعوا بقولي وشاع لدى الحكومة وعند المسلمين اني مقترن بالزواج وان لم يكن اسمي مقيّداً في الدفاتر الرسمية . فما زالت زوجتي المزعومة مع رفيقتيها في بيتي يشتركن بالخدمة الى ان انفتح الطريق فانطلقت الى بلغارية عند اهل لها هناك فرّقتُ الشهادة

وفي ١٠ شباط سنة ١٩١٧ طلبتني الحكومة للخدمة العسكريّة ولم يقبلوا منّي البدل النقدي . لكنّ المنزل الالماني العسكري اتخذني لخدمته في دير الزور بصفة ترجمان فركبتُ في ١ آذار مع قومندان المنزل المذكور ورافقتهُ خارج المدينة لافتقاد الامكنة التي تصلح لمرعى دوابهم وكان القومندان يسير مسرعاً وانا راكبٌ بغلةً في اثره فسقطتُ وانكسرت ذراعي اليسرى فرجعت الى البيت ودعوتُ مجبّرًا من العرب لعدم وجود طبيب فجبر لي الكسر وتأجل طلبي للعسكريّة فبقيتُ اتداوى في بيتي ولقيتُ من جماعة الارمن الموجودين عندي مداراةً لم اعهدها من افضل خدمة المرضى

وعلى اثر هذا الحادث انسحبتُ من المنزل الالماني وعدتُ الى اشغالي . وكان الالمان اتخذوا عوضاً عني بصفة ترجمان شابًّا ارمنيًّا كاثوليكيًّا من عينتاب فارسلتهُ الحكومة الى صحراء بعيدة وقطعت عنهُ كلّ معاش فأيس من الحياة وانتحر . فاضطرّ المنزل الالماني الى طلب مساعدتي وانا الوحيد في دير الزور العارف باللغة الالمانية فجعلوا جميع امور المنزل في يدي وصرتُ الوسيط بينهم وبين الحكومة في ما يطرأ

عليهم من الخلاف فاصبح مركزي في المنزل وفي عين الحكومة كبيراً جداً وامكنني بذلك ان ازيد سعيي في مساعدة المهاجرين الارمن وكنت امثل النصارى المقيمين في دير الزور فاهتمّ بشؤونهم وادافع عن حقوقهم . وقد اراد المنزل الالماني ان يجازيني عن خدمي لهُ فطلبوا لي وساماً ملكياً لكنّ طلبهم بقي دون جواب فعرضوا عليّ رتبة ضابط المالي وملازم اوّل فلم اكترث لذلك الامتياز

وكان الاتراك خوفاً من احتجاج الدول كفّوا وقتئذٍ عن ذبح الارمن واعادوا الى الاستانة بعد خمسة اشهر ذاك الجزّار الاثيم زكيّ بك وعيّنوا مكانهُ متصرّفاً آخر لم يقتل الارمن علانيةً وانّما ابقاهم تحت رقّ عبوديّة شاقّة اسوإ من عبوديّة بني اسرائيل في مصر . فكان مقامي في المنزل الالماني واسطة لخدمة هؤلاء البؤس المساكين

وفي شهر آب ١٩١٧ استفزّت النخوة الاتراك وحلفاءهم وقصدوا استرجاع بغداد من الانكليز فجهّزوا جيشاً كبيراً دعوهُ بالصاعقة (يلدرم اوردو) وألّف الالمان هيئتين فنيّة وادارية لدرس الطريق واعداد الزاد والاطعمة فدعوني لتهيئة لوازم الجيش واشترطت عليهم شروطاً رضوا بها منها ان تُعطى لاخويّ وليم ورأفت الرخصة لمساعدتي . فلم يتمّ الامر الّا بعد أن عرقلهُ الاتراك مدّة فارسلتُ اخي وليم الى حلب وتوجّه رأفت الى عانة بصحبة اللجنة الفنيّة وابتدأنا بتحضير اللوازم لحين ورود الجيش وحصلت لنا ارباحٌ عظيمة من شغلنا

على انّ هذه الحملة لم تخرج الى حيز العمل وذلك اوّلاً لانّ النار شبّت في محطة حيدر باشا في الاستانة فالتهمت ساتر التجهيزات الحربيّة التي كان الالمان اعدّوها وجمعوها هناك . وثانياً لأنّ الانكليز وحلفاءهم باشروا باضجوم في جهة فلسطين فاضطرّ الاتراك والالمان والنمساويون ان يعدلوا عن العراق للدفاع عن بلاد الشام فاسرعوا الى حيث اصابتهم كسرةٌ شنيعة ودُفنت شهرة المارشال فلكنهيم المكريّة مع صاعقتهِ الواهية . وبقيت التجهيزات التي اعددناها للعراق بلافائدة فسلّمنا للحكومة ما استحضرناهُ منها .

وفي شتاء تلك السنة ١٩١٧و١٩١٨ حصل في دير الزور مجاعةٌ تقشعرُّ لها الابدان قلّت الغلّات الى حدّ ان اقّة الحنطة بيعت بمجيديّ ونصف ذهباً وسقطت مع ذلك

قيمة الاوراق التركية حتى هبط سعر الليرة الى ١٨ غرشاً . فاشتد الجوع وذُبحت المواشي والحيوانات فلم يبقَ منها اثر في القرى والضياع ثم فشت الامراض وكان عدد الموتى يزداد يوماً بعد يوم . فبلغ الجوع بالناس الى ان أكلت الأمهات اولادهن وربما تزاحموا حول جيف الحيوانات الماتة والملقاة على المزابل . وقد رأيتُ مراراً بعيني قوماً يتنازعون لحوم الكلاب والحمير والجمال وينهشون بشراهة ما يصيبون منها . وكان كثيرون من الرجال والنساء يجتمعون حول المنزل الالماني فينبشون روث الدواب ليلتقطوا منهُ حبّات الشعير والذرة التي افرزها الخيل والبغال او سقطت من المعالف . ومات من الاعراب الذين اشتركوا بذبح الارمن نحو الستين بالمئة . وتاهَ كثيرون بالبراري يلتمسون لهم شيئاً من الحشائش البرّية

امّا انا فكنتُ ادّخرت بعدَ عدول الاتراك والالمان عن حملة العراق كثيراً من الحنطة والبرغل والسمن لمؤونة بيتي وفيهِ تسعة نفوس ثمَّ للمتاجرة بالباقي . فلمّا فشت المجاعة صرفتُ النظر عن الاتجار بالزاد والطعام وخصصتُ موجودي للتوزيع على المحتاجين بيد انَّ كثرة عددهم ونقصان المؤونة اضطرّاني الى حصر حسناتي الّا في اوقات الحاجة القصوى فصرتُ اوزّع بعض المثاليكات بدلاً من الزاد فكان الفقراء يرفضونها ويقفون على الباب ساعات يطلبون لقمة من الخبز فكان قلبي ينفطر الّا عليهم وربّما جعلتُ اتّكالي على الله فسددتُ رمق اولئك المساكين فانقذتُ بعض النساء والاولاد من مخاليب المنون . والحقّ يقال ان الله لم يهملنا حتّى بلغنا المواسم الجديدة . وبفضل ما بقي لدينا من الدراهم ابتدأت اشغالنا ان تتّسع واقتنيتُ املاكاً واراضي زراعيّة في دير الزور واطرافها املاً في مستقبل تلك البلاد

وكلّ يعلم كيف انتهت الحرب وانسحاب الاتراك من سوريّة في اوائل تشرين الثاني بعد فشل جيوشهم وخساراتهم الفادحة . امّا دير الزور فغلبت عليها الفوضى مدّة نحو شهر لاحكومة عليها الى ان اجاب الامير فيصل دعوة الديريين فارسل اليها قائداً مع بعض الجنود العربية وولّى عليها متصرّفاً عربيّاً فبقيت المدينة تحت حكمهم من ٨ كانون الاوّل ١٩١٨ الى ٦ كانون الثاني ١٩١٩ حيث حضرت فرقة عسكريّة انكليزيّة وتولّوا تدبير الامور ورفعوا العلم الانكليزي . وخطب قائدهم في الناس بالانكليزيّة فأجبتهُ بالفرنسويّة مرحّباً بالاحتلال الانكليزي ومهنّئاً بظفر الحلفاء